مقدمة لجامع الكتاب

ما العاشق إلاَّ غصنٌ مورقٌ أزهر فى خلاله الحبُّ فأثمرَ حلوَ العفاف. فهو لا يرتاحُ إلاَّ إلى طيرٍ يشكو نوى إلفه ولا يروق لهُ فى واسع الفلاة إلاَّ تنسم ريح الصبا الحاملة شذا الحبيب. فلله ما أحلى الحبَّ إذا توشَّى ببرد الصفاء وما أبهى سناهُ إذا استمدَّ من لظى القلب الطاهر نوراً ساطعًا بهيًا. فهو لعمرى السلم المؤدية إلى العلياء التى لا يرتقيها إلاَّ قومٌ أُنزلت على قلوبهم آيات العفاف. بل الروح السارية فى النسيم سرى الصفاء فى الهوى العذرى أو الإقدام فى قلب الفارسِ الشجاع. وحسبه وصفًا أنهُ يطرق القلوب فيدمث الأخلاق ويغشى الفؤاد فيوحى إليه شمائلَ تغنى عن الشمول، ولله در ابن الفارض حيث يقول:

وبالحَدَقِ استغنيتُ عن قَدَحِى ومن شمائلها لا من شمُولِى نشوتى

وإليك ما جاءَ فى العشق وذويه ملخصًا من أقوال العرب:

قال العينى: سألت أعرابيًا عن العشق فقال: هو أظهر من أن يخفى وأخفى من أن يُرى كامن كمون النار فى الحجر إن قدحتَهُ أورى وإن تركتهُ توارى.

وقيل: لو لم يكن للعشق إلاَّ أنهُ يشجع الجبان ويصفى الأذهان ويبعث حزم العاجز لكفاه شرفًا.

قيل لرجل: ابنك قد عشق فقال: عذَّب قلبهُ وأبكى طرفهُ وأطال سقمهُ. وقيل ذنوب العشاق ذنوب اضطرار لا اختيار وما كان كذلك لم يستحق عقوبة.

وقال عبد الله بن جندب: خرجت فرأيت فتاة حسناء كأن وجهها الفضة فتمثلت بقول قيس بن ذريح:

خـذوا بدمى إن متُّ كل خريدة مريضةَ جفن العينِ والطرف فاترُ

فقالت الفتاة: يا ابن جندب إن قتيلنا لا يودى وأسيرنا لا يفدى.

وقال الشاعر:

تشكَّى المحبون الصبابة ليتنى تحملت ما ألقاه من بينهم وحدى
فكانت لنفسى لذة الحب كلها فلم يلقها قبلى محب ولا بعدى

وقال شاعر بنى أسد:

إذا أمرتك النفس أن تتبع الهوى فقل سامعٌ للأمر منكِ مطيعُ

أراد أحدهم السفر وكان له ابنة عم يحبها فقال:

ولما تبدت للرحيل جمالنا وجد بنا سير وفاضت مدامعُ

أشارت بأطراف البنان وسلمت وأومت بعينيها متى أنت راجعُ

فقلت لها والقلب فيه حرارة فديتكِ ما علمى بما الله صانعُ

سأل سعيد الهمذانى أعرابيًا حضر مجلسهُ: ممن الرجل؟ قال: من قوم إذا عشقوا ماتوا. فقال: عذرى ورب الكعبة، ثم سأله سبب ذلك فقال: لأن فى نسائنا صباحة وفى فتياننا عفة.

قال بعض حكماء الهند: ما علق العشق بأحد عندنا إلاَّ وعزينا أهلهُ فيه.

قيل: إن بهرام جور ملك الفرس لم يرزق سوى ولد فأخذ فى ترشيحه للملك وهو ساقط الهمة إلى أن اتفق المعلمون من الحكماء وغيرهم على أن لا نافع له غير العشق فسلط عليه الجوارى يعبثن به إلى أن علق بواحدة منهن، فأمرها الملك بالتجنّى عليه وأنها لا تطلب إلاَّ رفيع الهمة ذا رغبة فى العلم والملك، فكان بسبب ذلك من أجل ملوك الفرس وأعلمها.

قال بعضهم: العشق مجهول لا يعرف، ومعروف لا يجهل، هزلهُ جد وجده هزل.

سأل المأمون ابن أكثم ما العشق؟ فقال: سوانح للمرءِ تؤثرها النفس ويهيم بها القلب، وسأل ثمامة فقال: العشق جليس ممتع وأليف مؤنس وصاحب مالك وملك قاهر مسالكُه لطيفة ومذاهبهُ غامضة وأحكامه جائرة ملك الأبدان وأرواحها والقلوب وخواطرها والعيون ونواظرها والعقول وآراءها وأعطى عنان طاعتها وقياد ملكها وقوى تصرفها: توارى عن الأبصار مدخلهُ وغمض فى القلوب مسلكهُ، فقال له المأمون: أحسنت يا ثمامة، وأمر له بجائزة. قيل لسعبد بن سالم: إن ابنك شرع فى الرقيق من الشعر، فقال: لا بأس فى ذلك فقد شرف وطرُف ودق ورق، ووُجد على صخرة مكتوبًا: العشق ملك غشوم مسلط ظلوم دانت لهُ القلوب وانقادت لهُ الألباب وخضعت لهُ النفوس فالعقل أسيره والنظر رسولهُ واللحظ عاملهُ والتفكر جاسوسهُ والشغف حاجبهُ والهيام نائبه بحر مستقره غامض ويم

تياره فائض دقيق المسلك عسير المخرج.

نظر رجل إلى معشوقته فغشى عليه، فقال حكيم: إنهُ من انفراج قلبه اضطرب جسمه. فقيل له ما بالنا لا نكون كذلك عند النظر إلى أهلنا!! فقال محبة الأهل قلبية وهذه روحانية فهى أدق وألطف وأعظم سريانًا وفعلاً: وقال الشاعر:

خيالك فى عينى وذكرك فى فمى ومثواك فى قلبى فأين تغيب

وقيل لبعض العلماء: إن ابنك قد عشق، فقال: الحمد لله الآن رقت حواشيه ولطفت معانيه وملحت إشاراته وظرفت حركاته وحسنت عباراته وجلت شمائله فواظب على المليح واجتنب القبيح.

وكانت العرب تفتخر بمن يطرق الحب قلبه حتى إن جوارى بعض الخلفاء وغيرهم من العظماء كن يكتبن على العصائب وغيرها من البرد أبيات شعر تضمنت من الغزل أشهاه ومن كؤوس الأوصاف أرقه وأهناه، وإليك ذكر ما كتب على عصائب بعض الحسان:

قال أبو الحسن: دخلت على هارون الرشيد وعلى رأسه جوارٍ كالتماثيل فرأيت عصابة منظمة بالدر والياقوت مكتوب عليها بصفائح الذهب:

ظلمتنى فى الحب يا ظالم والله فيما بيننا حاكم

ورأيت على عصابة أخرى:

ما لى رميتُ فلم تصبك سهامى ورميتنى فأصبتنى يا رامى

وكتب على عصابة:

ألا بالله قولوا يا رجالُ أشمس فى العصابة أم هلالُ

وعلى غيرها:

أتهوون الحياة بلا جنون فكفوا عن ملاحظة العيون

وكتبت ورد جارية الماهانى على عصابة لها وكانت تجيد الغناء مع فصاحتها وبراعتها:

تمَّت وتمّ الحسن فى وجهها فكل شىء ما سواها محال

للناس فى الشهر هلال ولى فى وجهها فى كل يوم هلال

قال على بن الجهم: خرجت علينا عالج جارية خالصة تميس تيهًا وإعجابًا وعلى طرتها مكتوب:

يا هلالاً من القصـــور تجلى صام طرفى لمقلتيـك وصلّى
لست أدرى أطال ليلىَ أم لا كيف يدرى بذاك مـن يتقلى
لو تفرغت لاستطـــالة ليلى ولرعى النجـوم كنت مخلاً

وخرجت إلينا منال وعليها درع خام مكتوب على جانبه الأيمن:

كتب الطرف فى فؤادى كتابًا هـو بالشوق والهوى مختومُ

وعلى الأيسر مكتوب:

كـان طرفى على فؤادى بلاءً إن طرفى على فؤادى مشومُ

وكان على عصابة (ظبى) جارية سعيد الفارسى مكتوبٌ بالذهب:

العيـن قارئة لمـا كتبت فى وجنتىَّ أناملُ الشجن

قال الحسن بن وهب: كتبت شعب على عصابة جاريتها:

لم ألقَ ذا شجن يبوح بحبـه إلا حسبتك ذلك المحبـوبا
حذرًا عليك وإننى بك واثق أن لا ينال سواى منك نصيبًا

وكتب شفيع خادم المتوكل على عاتق قبائه الأيمن:

بدرٌ على غصن نضير شرق التـرائب بالعبير

وعلى عاتقِه الأيسر:

خطت صفيحة وجهـه فى صفحة القمر المنير

وكتبت وصيف جارية الطائى على عصابتها:

فما زال يشكو الحب حتى حسبتهُ تنفس فى أحشـائه وتكلمـا
فأبكى لديه رحمـــة لبكـائه إذا مـا بكى دمعًا بكيـت لهُ دما

وكان على عصابة (مزاج) وهى من مواجن أهل بغداد:

قالوا عليك دروع الصبر قلـتِ لهم هيهـات إن سبيل الصبر قـد ضاقا
ما يرجع الطرف عنها حين يبصرها حتى يعـود إليهِ الطرف مشتاقا

وكتبت جارية الناطفى على عصابتها:

الهنـد والسمر فى عينى إذا نظرت فاغربّ بعينيك يا مغرور عن عينى
فإن لى سيف لحظٍ لسـت أغمـده من صنعة الله لا من صنعة القين

وكتبت (حدائق) فى كفها بالحناء:

ليس حسن الخضاب زين كفى جسن كفى زينٌ لكل خضـابِ

وخرجت (علينا) جارية حمدان وقد تقلدت سيفًا محلّى وعلى رأسها قلنسوة مكتوب عليها:

تأمل حسن جـارية ... يحار بوصفها البصرُ
مـذكـرةٌ مـؤنثـةً ... فهى أنثى وهى ذكرُ

وعلى حمائل سيفها مكتوب بالذهب:

لم يكفِه سيف بعينيـه ... يقتل مـن ساء بحـدبه
حتى تردى مرهفًا صـارمًا ... فكيف أبقى بين سيفـهِ
فلو تراه لابسًا درعـهُ ... يخطر فيها بين صفيـهِ
علمت أن السيف من طرفِه ... أقتـل مـن سيفٍ بكفيهِ

وكتبت واحدة على منطقة جاريتها منصف الكوفية:

جسدى من غمزة العين ... مـا إذا مسـت ينحل
وفـــؤادى رقَّ حتى ... كـاد من صـدرى ينسل
بعض ما بى يصدع القلب ... فمـا ظنـك بالكـل

قال أحمد بن عبد الله رأيت على مروحة مكتوبًا:

الحمد لله وحده ... وللخيفة بعـدهْ
وللمحب إذا ما ... حبيبهُ بات عندهْ

ورأيت فى مجلس سريرًا مكتوبًا عليه بالذهب:

أشهى وأعذب من راحٍ ومن وردِ ... إلفـان قـد وضعـا خدًا على خـدِّ
وضم إحداهمـا أحشـاء صـاحبـه ... حتى كأنهمـا للقـرب فى عِقـدِ
هـذا يبوح بمـا يلقـاهُ من حزنٍ ... وذاك يظهرُ ما يخفى مـن الوجـدِ

ورأيت على عصابة:

وإن يحجبوها بالنهارِ فمـا لهم ... بأن يحجبوا بالليل عنى خيالها

قال الأصمعى رأيت على باب الرشيد وصائف على عصابة واحدة منهنَّ مكتوب:

نحن خـودٌ نواعـمٌ ... من أراضٍ مقـدسهْ
أحسن الله رزقنا ... ليس فينا منحسـهْ
فاتـق الله يا فتى ... لا تدعنى موسوسهْ

يقسم كتاب نوادر العشاق إلى ستة أقسام:

القسم الأول: فى نوادر الخلفاء.

القسم الثانى: فى نوادر بنى عذرة.

القسم الثالث: فى نوادر بنى عامر.

القسم الرابع: فى نوادر الشعراء.

القسم الخامس: متفرقات من نوادر العشاق.

القسم السادس: فى مصارع العشاق.

❁ ❁ ❁

obeikandl.com